القســـم الثـــالث

حـــرب أم لا حـــرب

لـم تكن هناك أية صفقـــة لــمنع وقــوع الحــــــرب..بل كانت ثمة افتراضات و أوهــام وسلسلة مـن حســــــابات خاطئـــــــة.

في انتظار الهاوية

تزايد الإهتمام في العــراق بنظرية حافة الهاوية Brinkmanship (التي اقترنت بوزير خارجية الولايات المتحدة الأسبق جون فوستر دالاس خلال ولاية الرئيس ايزنهاور مطلع الخمسينات) حتى افترضت القيادة العراقية في الفترة ما بين دخول الكويت والحرب أن بلوغ شفا الهاوية لن يؤدي إلى وقوع الحرب. وتداخل التمني مع ذلك الإفتراض وصار الحديث عن هذه النظرية وكأنها أمر واقع يبعد شبح الحرب وبُنيت عليها حسابات سياسية وعسكرية برغم عدم تناظر الظروف التي ولدت فيها هذه النظرية وما رافقها من صراعات كانت تبلغ شفا الهاوية ثم تتراجع لتدخل في قنوات التسويات الدبلوماسية مع الظروف الجديدة التي أحاطت بالصراع بعد دخول القوات العراقية الكويت .. بمعنى أن أية قضية لا تشبه أخرى وأن أزمة جزيرة الخنازير في كوبا هي غيرها في الخليج هذه المرة، وأنّ إفتراض التشابه كان نمطاً من فنتازيا التمني المبنية على ضعف الإستقراء وعدم فهم المتغيرات الجديدة في العالم وخطورة الصراع الجديد في موضوعه ومكانه عدا عن تبدل مواقف القوى الدولية وغياب مرحلة الحرب الباردة التي طبعت الصراع الدولي بسمة الإستقطاب ومنعت استفراد قوة واحدة بالهيمنة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ولم يكن متاحاً في الصراع على الكويت استخلاص حل سياسي في لحظة الإقتراب من شـــفا الهاوية بسبب غياب الدبلوماسية الســـرية من جهة .. وعرقلة الدبلوماسية العلنية من جهة أخرى .. لقد كان لا بد من وجود لاعبين إثنين يرتضيان اللعبة ويجيدانها .. ولم يكن هناك مثل ذينك اللاعبين لنزع فتيل الحرب في آخر لحظة قبل وقوعها ..

وإزاء ذلك ساد العراق مناخ من الإستسلام لهزيمة مقبلة، واستمر قبول التحدي بمزيد من العناد وكأنه جزء من لعبة يطبعها اليأس وإرتضاء دور الضحية .. بل إن التفسير الوردي للعناد ورفض الإنسحاب كان يذهب إلى أنّ هناك صفقةً قد تكون رُتبت أو أنها كانت تُرتب لمنع وقوع الحرب في اللحظة الأخيرة .. لكن ذلك التفسير كان إيهاماً للذات وللجمهور معاً، فلم تكن هناك أية صفقـــة حقيقيـــــة بل كانت هناك إفتراضات وأوهام وسلسلة من حسابات خاطئة ..

وبنى الرئيس صدام حساباته أيضاً على إفتراض أن الحرب لو وقعت فإنها ستكون إلى غرار النموذج الفيتنامي وأن الولايات المتحدة لن تتورط عندئذٍ في تحمل خسائر بشرية كبيرة، لكن تلك الحسابات كانت تسقط من حسابها بيئة المعركة، جغرافياً وعسكرياً وسياسياً، ولذلك بدت ضرباً آخر من ضروب التمـــــني .. لا غير.

وأذكر أنّ حسين كامل قال لي ضمن اعترافاته حول أحداث 1990 (إنّ الرئيس صدام كان على قناعة راسخة بأنّ الحرب لن تقع، وأنّ معظم حساباته بُنيت على استبعاد وقوعها، لذلك فإنّه أوصى مساعديه مراراً بالثبات والصمود حتى ينتهي موعد الإنذار الذي أعطاه مجلس الأمن لأن تطورات سياسية كانت متوقعة بعد إنتهاء ذلك الموعد، وأنّه كان يتهيئ للتعامل مع مبادرة سياسية من إحدى الجهات الدولية بعد إنقضاء الموعد الذي حدده مجلس الأمن).

لقد هيمن على القيادة العراقية شعور غير مبرر لإيهام الذات مبني على أنّ هناك من سيأتي لإسترضائها في الساعات الأخيرة قبل ساعات من موعد انتهاء إنذار مجلس الأمن أو بعده بساعات ..وقد أبلغ الرئيس صدام كبار مساعديه بأنه سيتعامل مع أول مبادرة دبلوماسية تقدم إليه بعد انتهاء موعد الإنذار حتى يبرهن بأنـّه تجاوز خط الخوف الوهمي وأنّه هو الذي فرض من جانبه موعداً للتماس الدبلوماسي بعد انقضاء آخر لحظة على الموعد الذي حدده الخصم .. غير أنّ الذي حصل، ولم يكن ليحصل سواه، هو أنّ أحداً لم يكن مستعداً للحديث في إمكانية منع وقوع الحرب بعد حلول موعد وقوعها ..

•••

يتبين من محاضر اللقاءات التي عقدت مع المبعوث السوفيتي يفغيني بريماكوف خلال ثلاث زيارات قام بها إلى بغداد عشية الحرب وخلالها أن القيادة العراقية أضاعت فرصاً حقيقية لعقد صفقة وسط توفر غطاءً لإنسحاب عسكري منظم بأقل الخسائر السياسية والعسكرية. وقد لا أجد مناسبةً لإعادة نشر محاضر تلك الإجتماعات مرة أخرى ، غير أن بعض تفاصيل لقاء كان قد جرى في تشرين أول "أكتوبر" 1990 بين بريماكوف و حسين كامل تعطي فكرة مباشرة وحادة عن الطريقة التي كانت تُدار بهـا الأزمة.

فقد زار بريماكوف مبنى هيئة التصنيع العسكري لإشعار حسين كامل بأنه محط إهتمام القيادة السوفيتية .. وقال له: (إننا ننظر إليك بإعتبارك الشخص الثاني في القيادة العراقية.) فإنتشى صهر الرئيس وقال مداعباً:

– لا واللـــه.. لستُ بالشخص الثاني في الدولة ، حتى أنني لست عضـــواً في مجلس قيادة الثـــورة ولا في القيادة القطرية للحزب..(ثم ضحك وأستطرد) إنني مجرد شـــخص عادي..

كان الفريق عامر السعدي والفريق عامر رشيدالعبيدي مساعدا صهر الرئيس، يومئذْ، يشهدان على ذلك اللقاء..

قال بريماكوف: إنني هنا لإسداء النصيحة..فكل ما لدينا من معلومات يشير إلى أن الولايات المتحدة ستوجه ضربة ساحقة ضدكم ما لم تخرجوا من الكويت..وأنا أتحدث إليك لمعرفتي بدرجة صلتك بدائرة صنع القرار..وسنكون مستعدين لمساعدتكم للخروج من الوضع الحالي.

رد صهر الرئيس:

–والله إذا وقعت الحرب وطلبت أمـريكا وقف إطلاق النار فلـن نقبل من جانبنا وسنواصل القتال..ونلقنها درساً لن تنساه إلى الأبد..ومن الأفضل لكم أن تبتعدوا عن الأمريكان ، ولا تفكروا بمساعدتهم عندما يطلبون منكم وقف أطلاق النار..

ما أكثر المرات التي فُتن فيها الرئيس بآراء صهره ..

الرئيس والجنرالات

في أيلول "سبتمبر" 1990 عقدت القيادة العامة للقوات المسلحة اجتماعاً ترأسه الرئيس صدام حسين، وطلب فيه الإستماع إلى تقديرات كبار مساعديه العسكريين حول قدرات الولايات المتحدة في حالة وقوع الحرب، وكان على الفريق أول الركن عبدالجبار شنشل وزير الدفاع الذي جلس على يمينه أن يتحدث أولاً، فقال : إن الحرب التي تنتظرنا هي غير الحرب التي خضناها مع إيران، وسنواجه تحديات هائلة أمام التفوق التكنولوجي الأمريكي، ولن يكون بمقدورنا التعامل مع هذا التفوق لأن قدراتنا في مجال التكنولوجيا العسكرية معتمدة على الدول الغربية نفسها وهم يعرفون كل أسرارنا لأنهم مصدر علومنا وأسلحتنا.

فأنتفض الرئيس في وجه وزير دفاعه وقال له : يا أبو مثنى .. يبدو أنك بدأت (تخرّف)، وأن الخوف بدأ يدب في أوصالك ..

والتفت إلى صهره حسين كامل الذي جلس على يساره وطلب منه ملفاً كان قد دخل الإجتماع وهو يحمله .. وقال :

– في هـذا الملف كل استعداداتنا لخوض الحرب ضد التكنولوجيا الغربيــــة .. وسنهزمهم ..

× حاول الفنيون العراقيون تحوير طائرة "اليوشن 76" روسية الصنع من إستخداماتها لأغراض النقل والتحميل إلى إستخدامات مشابهة لوظائف طائرات الإنذار المبكر الأمريكية والبريطانية، وسعى هؤلاء الفنيون منذ مطلع 1989 لتركيب مجموعة من الرادارات المحمولة وأجهزة الإلتقاط الصوري والصوتي بعد أن تم إخلاء الطائرة من كل محتوياتها التي تتعلق بالنقل، وجرت تجربة للطيران بها في شهر آب من 1989 غير أن المحاولة فشلت عندما سقطت الطائرة وقضى الفنيون والملاحون الذين كانوا على متنها ، ثم أُعيدت المحاولة على طائرةْ أخرى من نفس النوع وتمكنت من الطيران حيث أُلتقط لها شريطُ تلفزيوني بعث به حسين كامل إلى مكتبي في الإذاعة والتلفزيون طالباً الإعلان عن نجاح التجربة وعرض الشريط، وأدركت أنّ النزعة الإستعراضية التي تسيطر على صهر الرئيس هي التي تدفعه للإعلان عن نجاح عملية كانت ما تزال في طور التجريب المحفوف بالمخاطر، فطلبتُ من مساعدي حسين كامل أن يأتوني بأمرْ من رئيس الجمهورية لكي نذيع الخبر ونعرض الشريط، وتدخل وزير الإعلام في تلك الأثناء فتبنى موقف حسين كامل وطلب إعلان الخبر على مسؤوليته، وبعد دقائق من بدء التنويه عن قرب إعلان خبر يتعلق بإنجازْ للصناعة العسكرية بدا أنّ الرئيس الذي كان يراقب التلفزيون قد أُخذ بالمفاجأة، فغضب وطلب على الفور التوقف عن التمهيد لإذاعة الخبر حيث لم يكن صهره قد إستأذن منه لإعلان الخبر كما جرت العادة، ومرت أربعون دقيقة من التوتر والترقب فقد انتبه مشاهدو التلفزيون إلى التغيير المفاجئ في البرامج وإلى التوقف عن الإعلان الذي ينوه بإنجاز صناعي عسكري كبير، وحدثت مفاجأة في القصر الجمهوري عندما هرب حسين كامل من غرفة سكرتير الرئيس وتنصل عن مسؤوليته في طلب إعلان الخبر. ولم يبقَ أمام الرئيس غير التعامل مع الأمر الواقع الذي فرضه صهره ، فأوعز بمعاودة لفت الإنتباه للخبر وطلب إطلاق إسم (عدنان 1) على الطائرة في إشارة إلى اسم وزير الدفاع الذي قُتل في حادث طائرة طالما أُتهم بتدبيره حسين كامل نفســــه.

ثم باشر حسين كامل في عرض ما يحتويه الملف الذي فتن به رئيسه .. وكان من بين ما قاله :

– ستكون طائرة (عدنان واحد×) جاهزة لكشف حركة أية طائرة معادية، وستكون صواريخنا جاهزة لتدمير مواقع العدو في عقر داره.

بعد ساعات من انتهاء الإجتماع .. تسلم وزير الدفاع (الذي تجاوز سبعين عاماً من العمر أمضى منها خمسين عاماً في الجيش) رسالة من رئيسه يقول له فيها : (لقد حان الوقت لنعيدك إلى موقعك السابق كوزير دولة للشؤون العسكرية) .. وحل الفريق أول الركن سعدي طعمة الجبوري وزيراً انتقالياً للدفاع انتهت مهمته هو الآخر بانتهاء حرب الخليج حيث تولى الوزارة حسين كامل صهر الرئيس ثم على حسن المجيد ابن عمه وكلاهما خدم في الجيش برتب متدنية تقل عن رتبة ضابط قبل صعودهما إلى أعلى المواقع في قيادة جيش دولة يعيش فيها سبعة آلاف ضابط من حملة الرتب العسكرية العليا.

●●●

في تلك الأثناء طلب الرئيس من ثلاثة ضباط أن يجتمعوا يومياً لمقارنة المعلومات المتوافرة أمامهم عن الحرب المقبلة، وهم اللواء وفيق السامرائي ممثلاً للإستخبارات العسكرية واللواء المهندس عامر رشيد ممثلاً للتصنيع العسكري واللواء الطيار خلدون خطاب التكريتي ممثلاً للقوة الجوية .. وبعد عشرة أيام انتهى الثلاثة من إعداد تقرير مفصل عن الجوانب الإستخبارية والتكنولوجية للحرب المنتظرة.

إستجمع الثلاثة كل ما توافر في المؤسسات التي يعملون فيها من معلومات وانتهوا إلى الإقرار بصعوبة (خوض حرب ضد الولايات المتحدة وحلفائها بسبب التفوق الإستخباري والتكنولوجي الهائل) وارفقوا بتقريرهم عرضاً بأنواع الطائرات والصواريخ وأسلحة المشاة التي يتوقعون استخدامها من جانب قوات التحالف ضد العراق.

عندما قرأ الرئيس صدام ذلك التقرير كتب عليه معلقاً : (إنكم تفكرون وتتصرفون كمروجين للأسلحة الأمريكية، وهذه عقلية تجار السلاح .. سننتصـــــــر عليهـــــم ونهزمهـــــم في كـــل الأحـــوال).

كان ذلك التعليق إيذاناً بأن أي نقد أو تحذير سيؤخذ على أنه مظهر للضعف والخوف والتراجع وأن على دعاة تحاشي الحرب أن يصححوا مواقفهم لأنهم قد يصبحون أكباش فداء في مرحلة انتظار الحرب، ولذلك غابت منذ مطلع تشرين أول "أكتوبر" 1990 أية نبرة واقعية لوصف ميزان القوى واحتمالات الصراع العسكرية وغلبت نبرة استعراضية توهم الجمهور وتوهم الذات بوجود (قدرات كامنة وغير منظورة)، وصار قائد القوة الجوية مزاحم صعب التكريتي يبشر رئيسه : (بأن ذبابة لن تدخل أجواء العراق)، في حين خرج الرئيس أمام عدسات التلفزيون ليعلن في كانون أول "ديسمبر" 1990 وقبل أسبوعين من بدء الحرب : (أن بدوياً في الصحراء يستطيع بتراب يذروه في الفضاء أن يعمي التكنولوجيا وطائرات الأعداء) .. وعاد وزير الإعلام إلى القول (إن أعداءنا سيخسرون لأنهم مجرد عبيد للكومبيوتر.)

●●●

وتم إستدعاء عدد من كبار الضباط الذين أجادوا في مُقاتلة الإيرانيين خلال حرب السنوات الثماني – ثم جرى الإستغناء عنهم وإحالتهم على التقاعد بعد انتهاء تلك الحرب – للإستفادة من خبراتهم والحصول على مشورتهم، وكان من بينهم الفريق أول الركن إسماعيل تايه النعيمي الذي قاد الوحدات العسكرية الأساسية في المرحلة الأولى من الحرب مع إيران، وأوفده الرئيس إلى الجبهة لاستكشاف أوضاع القوات المرمية في صحراء الكويت، فأمضى النعيمي بضعة أيام هناك ليعود بتقرير شامل عن ضعف معنويات الجنود، وارتفاع نسبة الهاربين من الخدمة في الوحدات الأمامية، ونقص الأغذية والمياه، وعدم وضوح الرؤية أمام آمري الألوية والأفواج الذي يعجزون عن معرفة المهمات التالية التي ينبغي عليهم تحملها، وانتهى النعيمي إلى القول (بأنّ الجيش لن يصمد بضعة أيام إذا وقعت الحرب). فما كان من الرئيس بعد قراءة تقرير النعيمي إلا أن طلب منه العودة إلى منزله ثانية، وبعث إليه في اليوم التالي سيارة مرسيدس هديةً من القائد العام إلى ضابط كبير عاد ثانية إلى تقاعده من الخدمة.

وبدا أن الرئيس كان مستاءً من الآراء التي عاد بها الضباط الذين أوفدهم إلى الجبهة، فبعث نائبه عزة إبراهيم وهو شخص غير عسكري،

لإستطلاع أوضاع القوات في صحراء الكويت، وقد أمضى المبعوث الجديد ثلاثة أيام عاد بعدها بتقرير يبشر الرئيس بـ (حتمية النصر وكفاءة المعدات العسكرية وإرتفاع معنويات الجنود ..) .. ومنذ ذلك الحين صار الرئيس يضرب المثل بتقرير نائبه للبرهنة على ارتفاع مستوى الإستعداد القتالي في الجبهة.

أما الفريق أول الركن ماهر عبدالرشيد الذي اشتهر بالمهمات التي تولاها في الحرب مع إيران قبل أن يترك الخدمة بعد تحرير شبه جزيرة (الفاو) فلم يستدعه أحد للإستماع إلى آرائه، بعد أن اختار العيش في البادية الغربية للإعتناء بالماشية متأملاً الصحراء متحاشياً من جانبه النزول إلى بغداد حيث كان يمكن أن يلقى مصيراً صعباً لو صرح بآرائه التي قالها في المرة الوحيدة التي قابل فيها صحفياً لم يتمكن من نشر تلك الآراء التي جاء فيها :

(لقد توقعت خسارتنا للحرب لسبب بسيط وهو عدم وجود قادة ميدانيين لهم خبرة كافية في مجال الحرب واعتماد الجيش على الضباط الصغّار الذي حصلوا على رتب عن طريق التكريم والذين لم يضعوا لمبدأ التدرج العسكري، ..وكذلك تم حجّب قادة الحرب الأولى (العراقية الإيرانية) وعدم إشراكهم في القتال، عدا عن أن العراق دخل في حرب غير متكافئة مع عدم وجود إستحضارات كافية لخوض الحرب).

وأضاف لقد (توقعت أن أرى الجنود يهربون من ساحة القتال ويقبلون من هنا .. عبر الصحراء .. وقد حدث ذلك بالفعل ..)

إنّ أحداً لم يطلب رأيه يومئذٍ، غير أنّ الإنتفاضة التي وقعت في معظم أنحاء العراق أعادته إلى ذاكرة الرئيس الذي استدعاه لأول مرة بعد ثلاث سنوات مرت على لقائهما الأخير بعد تحرير (الفاو). ويروي الفريق ماهر التفاصيل الآتية عن لقائه مع الرئيس : (عينني الرئيس مستشاراً عسكرياً غير أنه منذ أن إنتهت معارك الفاو لم أتلقى دعوة واحدة، ولم يسألني أحد أو يستشرني في أية قضية والرسالة الوحيدة التي تلقيتها كانت عقب أحداث الجنوب والوسط حيث حمل قصي ابن الرئيس رسالة من أبيه مكتوبة بخط يده ينتخيني فيها لإعانته في القضاء على الشغب).

وقال بأنه اتجه مع زوج ابنته السيد قصي إلى بغداد وكان يرتدي دشداشةً وعقالاً (وهو الزي الذي عاد إليه بعد خروجه من الجيش وإحالته على التقاعد) وقد تجاوزت السيارة التي تنقلهما بغداد باتجاه منطقة الرضوانية وبعد فترة دخلت في نفق تحت الأرض و(سرنا مسافة طويلة انتهت بفسحة، تركنـــــا السيارة ودخلنا غرفة ضيقة لا تتجاوز (3 ط 4) أمتار تحتوي على سريـــر عادي وطاولة صغيرة ومصباح وفوجئت برؤية الرئيس هنـــاك بـ(الروب) وكان يشد كفه بضمادة .. فاستقبلني مرحباً وقال إنه في شدة وأن مدن الوسط والجنوب قد إنقلبت عليه وليس له سوى أبناء عمومته، فراعني منظره وانكساره وقلت له بأنني جندي وله أن يأمرني وهنا طلب أن يجلبوا لي بذلتي العسكرية ورتبتي فاعترضت على وضع الرتبة فوق كتفي وارتديت البذلة في الغرفة تاركاً رتبتي العسكرية على الطاولة، وتوجهت في اليوم نفسه إلى (المحاويل) حيث كان الجيش يعسكر هناك .. وأول شئ استفزني في منطقة التحشد العسكري هو أن طه ياسين رمضان كان قد استقر في (كرفان) لوحده وسلب من الجنود (يطغاتهم)، وحالما دخلت أمر أن يجلبوا لي (بطانيات) من الجنود ودعاني لأنز أبيت معه فقلت له بأنه مسؤول كبير ومن حقه أن ينام في المكان الذي يريد أما أنا فسأنام مع جنودي.

وبالفعل نمتُ تلك الليلة مع الجنود وكان لهذا التصرف رد فعل عظيم لديهم).

وواصل يقول : (إنه بعد تطهير مدينة الحلة والتوجه إلى النجف أمسك الجنود بثلاثة مدنيين شباب وقادوهم إلى حيث كنا أنا وطه ياسين رمضان .. فاستقبلهم طه بالسباب والشتائم وكال لهما الإتهامات والنعوت وسحب أقسام البندقية وأراد اعدامهما، فقفزت لأكون بينه وبين الجنود وقلت له : إن هؤلاء أسرى وأنا القائد العسكري للعملية ولست بعثياً مثلك، فحاول أن يبعدني قائلاً : إنهم خونة والعملية برمتها سياسية أولاً وأخيراً. فاعترضت وقلت له لستُ بعثياً ولا سياسياً أنا رجل عسكري إذا قتلتهم سأقتلك .. فهدأ .. وأطلق سراح الشباب).

ولم تكن لدى عبدالرشيد فرصة ليقول رأيه في عملية الكويت ثم الذهاب إلى الحرب، فقد عاد ثانيةً ليعتني بماشـــيته في صحـــراء تذّكره كل مرة تـــأمل في آفاقهـــا .. بتلك الصحـــــراء التي ابتـــلعت جنوده وضباطـــه ممكن كان يفخر بهم خلال الحـــرب مع إيران.

•••

طلب الرئيس تشكيل لجنة استشارية تزوده بقراءات سياسية وعسكرية وترفده بمقترحات عملية لمواجهة المأزق الذي ترتب على عملية الكويت، وعهدپ إلى فاضل البراك (مستشار رئيس الجمهورية والمدير السابق للأمن والمخابرات) رئاسة تلك اللجنة التي ضمت في عضويتها اللواء صادق شعبان مستشار الرئيس والسفير عبدالجبار الهداوي ومدير المخابرات سبعاوي إبراهيم إلى جانب عدد من أساتذة العلوم السياسية، غير أن رئيس اللجنة لم يلبث أن أُعتقل بعد ثلاث اجتماعات للجنة ثم أُعدم بعد سنة من انتهاء الحرب بتهمة التجسس .. وتولى رئاسة اللجنة اللواء شعبان .. لكن تلك اللجنة لم تعش غير بضعة أسابيع، إذڗ أمر الرئيس صدام بحلها وطلب استشارات عسكرية منفصلة من اللواء صادق شعبان واللواء المهندس عامر رشيد اللذين توقعا أن تُستخدم صواريخ (كروز) على نطاق واسع في الضربة الأولى وأنّ موجةً من الصواريخ ستسبق القصف الجوي، وسيؤدي ذلك إلى شلّ قدرة الطيران وتدمير مراكز القيادة .. عندئذْ طلب الرئيس إطلاعه على مواصفات هذا الصاروخ ومداه وقوته التدميرية. كما توقعا أيضاً أن تتولى طائرات (الكوبرا) اقتناص الدبابات التي انتشرت في أعماق الصحراء لتشلها عن الحركة نهائياً .. لقد كانا يحاولان جاهدين إفهام الرئيس باستحالة خوض الحرب، وسعيا لدفعه إلى الإدراك بأن الهزيمة واقعة لا محالة مستخدمين في ذلك تعبيرات فنية بحتة لتفادي إثارة غضبه نحوهما ..

حين وقعت الحرب توارت أصوات المستشارين الذين رسموا صورة مبكرة للهزيمة في الحرب .. فقد أُعدم البراك بتهمة التجسس .. وتوفي الهداوي .. وغادر اللواء صادق شعبان العراق نهائياً سنة 1991 بعد أن أدرك أن نداءاته كانت تضيع مع عصف الريح.

يقفلون أبواب بغداد و يبشرون بفتح أبواب القدس ..

غلق أبواب بغداد

كانت مبادرةً غير مسبوقة، أن يستدعي صدام حسين رؤساء تحرير الصحف العراقية، لقد تم جمعنا على نحوْ سريع ليلة الثالث عشر من كانون الثاني "يناير" 1991، وكان أرجح احتمال سيرد في الأذهان هو أن الرئيس قرر إطلاق مبادرة سياسية لمنع وقوع الحرب قبل ثمانْ وأربعين ساعة من انتهاء الإنذار الذي أعلنه مجلس الأمن في الخامس عشر من تشرين الثاني "نوفمبر" 1990 و أمهل به الحكومة العراقية خمسة وأربعين يوماً للإنسحاب من الكويت، وإلا فإن اللجوء إلى القوة العسكرية سيصبح متاحاً بعد منتصف يوم الخامس عشر من كانون الثاني .. إذن مـا الذي يدفــع الرئيس لملاقاتنا قبــل ثمانْ وأربعين ســــاعة من هـذا الموعــــد .. ؟

بدا الأمر مثيراً للحيرة والقلق .. فمعظم الحاضرين لم يتعودوا توجيه الأسئلة إلى رئيسهم الذي كان يفضل عليهم دائماً صحفيين ثانويين من خارج البلاد مع أن معظمهم كان أقل منهم شأناً، كما أن الرئيس صدام نفسه لم يكن في موقع قبول أسئلة مهنية صحيحة، وبعد أن اعتاد توجيه أوامره لصحف مملوكة للدولة كي يهرع الجميع إلى تنفيذ تلك الأوامر .. لقد مرت لحظات حساسة على نحوْ مفرط، فعندما ستقع الحرب قد لا يلتقي هؤلاء ببعضهم البعض مرة أخرى، لا بل إنهم يشعرون في دواخلهم بضغط هائل من الجمهور الحائر الذي أُغلقت أمامه خيارات النجاة بسبب الرفض المطلق وغير المسوّغ لفكرة الإنسحاب من الكويت .. لقد كان هناك شعور عارم بوجود فرص كثيرة للنجاة تضيع من أمام نواظر

شعب كامل .. وكان من الصعب أن يعترف أحد من الصحفيين والمثقفين بأن الإصرار على عدم الإنسحاب هو موقف قابل للتبرير .. ماذا سنقول لأهلنا بعد هذا اللقاء .. إذا لم تحدث المعجزة السارة ، ويعلن الرئيس أمامنا، وليس أمام سوانا من غير العراقيين، أنه سينسحب ويوقف الإستسلام الجماعي للموت .. لنقل إنه كان سيمنع الانتحار الجماعي بالمرة ..

غير أنّ ذلك كله تبدد في بضع لحظات .. فقد حدثت ثلاثُ مفارقات أظهرت أننا نقف على ضفتين متباعدتين .. الرئيس على ضفة .. ومعظم الحاضرين على ضفة أخرى ..

كانت المفارقة الأولى هي في إكتشاف الأسباب التي دعت الرئيس إلى طلب ذلك اللقاء، فقد دخل وزير الإعلام راكضاً كعادته، واتجه إليّ يحمل سؤالاً مكتوباً، أغلب الظن أن الرئيس كان قد أملاه عليه. وطلب إليّ توجيه السؤال إلى الرئيس الذي لم يكن قد حضر إلى القاعة بعد، قرأتُ السؤال الذي صيغ بطريقة تتيح للرئيس أن يقول أمراً محدداً بتعلق بإحدى الخدع التي كان يخشى لجوء الولايات المتحدة إليها في إقناع الجيش العراقي بالإستسلام عندما يتم توجيه رسالة بصوت مشابه لصوت صدام عبر بث إذاعي قد يتداخل مع بث الإذاعة العراقية أو تلفزيون بغداد، لتحمل هذه الرسالة المفترضة دعوة إلى الجنود للإنسحاب من الكويت.

دفعتُ بالملف إلى يد الوزير ثانية وقلت له : إنّ لديّ أسئلتي .. وأنا لم أعد مسؤولاً عن جهاز الإذاعة والتلفزيون حتى أوجه مثل هذه الأسئلة المعدة مسبقاً.

لقد أغتاظ الوزير، لكن فرصته في الرد كانت محدودة، فركض في اتجاه المدير العام للإذاعة والتلفزيون يومئذٍ السيد سامي مهدي وطلب إليه قراءة السؤال مسبقاً وإعداد نفسه لتوجيهه إلى الرئيس.

عندما دخل صدام، تطلع في وجوه الحاضرين. كان يريد أن يقرأ ما تجسده ملامحهم، أما هو فبدا مرهقاً بعد اجتماع استمر ثلاث ساعات مع خافير بيريز دي كويار الأمين العام للأمم المتحدة .. وكان من الصعب بمكان أن يبادر معظم الحاضرين إلى توجيه السؤال الأول .. إنّ السؤال الافتتاحي هنا سيحدد إيقاع لقاء صحفي غير معتاد .. ووجدتُها فرصةً نادرة لأنتزع المبادرة وأسأل الرئيس صدام إنْ كان يعتقد بأن الرئيس الأمريكي جورج بوش سيحصل على موافقة الكونغرس بتخويله استخدام القوة وشن الحرب على العراق .. وهل سيتغير الموقف بعد إعلان موقف الكونغرس الذي كان مرتقباً تلك الساعات. لم يكن سؤالاً ليبعث المسرة في نفس الرئيس. وتوقعت أن يفتح ذلك السؤال الباب أمام الحديث في خياريّ الحرب والسلام، لأن مجرد القول بأن هناك فرصة سياسية كان أمراً محرماً يومئذٍ. وصعقت عندما افترض الرئيس صدام حسين أن رئيس الولايات المتحدة يتخذ قراره في الذهاب إلى الحرب أو عدم الذهاب إليها على نحو مماثل لما يفعله زعماء العالم الثالث حيث تغيب الشخصية الدستورية للبرلمانات والمؤسسات الإشتراعية التي توفر الغطاء القانوني للسلطة التنفيذية في حالة إعلان الحرب أو إعلان السلام .. لقد كان الرئيس صدام يرى نفسه ولا يرى خصمه في تلك اللحظة وهو يقول :

– من قال لكپ إن بوش في حاجة إلى موافقة من الكونغرس حتى يقرر اللجوء إلى الحرب .. إذا كان قد قرر ذلك فإنه لن ينتظر قراراً من الكونغرس.

ولعل من سخريات التاريخ، أن جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي خلال حرب الخليج، توقف عند مسألة إستحصال موافقة الكونغرس على استخدام القوة ضد العراق من زاوية مطابقة للسؤال الذي أثرته مع الرئيس صدام. وأظهر الوزير مقدار التحول الذي كان سيحدث لو لم يحصل الرئيس بوش على موافقة الكونغرس. فهو يقول في مذكراته بعد أربع سنوات من الحرب : (إذا لم نحصل على دعم الكونغرس لإستخدام القوة ضد العراق، فإن علينا آنذاك أن نعلن عن عزمنا احتواءه واستمرار العقوبات وبقاء القوات كمـــا فعلنا سابقاً في ألمانيا وكوريا .. وإذا حصلنا على موافقة الكونغرس ورفض الرئيس صدام الخروج من الكويت، فإن علينا آنذاك المبادرة بالهجوم) .. ويظهر هذا التناقض في الإطلال على آلية صنع القرار في واشنطن كمفارقة مثيرة بين زعيم دولة من العالم الثالث يعتقد أن رئيس الولايات المتحدة سيتصرف على طريقته فلا يسأل أحداً أو يأخذ موافقته على قرار مصيري مثل إعلان الحرب، وبين كبار المسؤولين الأمريكان الذين كانوا يشعرون بالتهيّب

إزاء القرار المنتظر من مجلسي النواب والشيوخ الأمريكيين حول مسألة استخدام القوة من عدمها ضد العراق.

كانت تلك هي المفارقة الأولى .. إن بداية المساجلة قد بدأت بطريقة مخلة بقواعد العلاقة بين الرئيس وممثلي صحافته الحكومية.

أما المفارقة الثانية .. فكانت تتشكل في ملامح الرئيس نفسه وهو يصغي إلى سؤال كتبه هو بنفسه ، .. وبدا كأنه يستمع إليه أول مرة عندما قرأ السيد سامي مهدي صيغة ذلك السؤال الذي ربما بسببه انعقد اللقاء الصحفي اليتيم بين رئيس الدولة العراقية وكبار صحفيي البلاد ..

ابتسم الرئيس صدام عندما فرغ من الإستماع إلى السؤال ثم صار يطمئن الشعب والجيش إلى أنه لن يكون هناك بيان صادر عنه يجيز الإنسحاب من الكويت .. وإن أي دعوة مسجلة بصوت شبيه بصوته ينبغي أن تؤخذ على أنها خدعة قد تلجأ إليها الولايات المتحدة.

كانت تلك هي الرسالة التي أراد أن يبلغها للجيش من جهة .. (لا انسحاب) .. وللأمريكان من جهة أخرى (.. لقد اكتشفنا اللعبة .. فأعيدوا النظر في خططكم) .. وسنرى أنّ كلام الرئيس تلك الليلة أربك أجهزته المدنية والعسكرية عندما أُذيع بيان حقيقي يعلن الإنسحاب من الكويت يوم السادس والعشرين من شباط "فبراير" 1991 .. إذ حدث ما كان يعده أمراً مستحيلاً ألا وهو الإنسحاب في لحظة الهزيمة .. لقد جرى ذلك الإنسحاب بطريقة مفجعة عندما اتسم بالفوضى على طريق واحد للموت .. كان هو كل ما تبقى لمن تأخر في العودة ..

أما المفارقة الثالثة .. فقد حدثت حين سأل السيد أمير الحلو، وكان يومها رئيساً لتحرير صحيفة (القادسية) إذ كانت هناك (مبادرة سياسية في اللحظة الأخيرة) .. حيث أغتاظ الرئيس وأجاب بطريقة جارحة : عن أية مبادرة تتحدث .. وأية لحظة أخيرة هذه .. اقفلوا على أهدافكم .. إنني أرى أبواب فلسطين مفتوحة أمامنا ..

كانت تلك الكلمات إيذاناً بانتهاء لقاء لم يترك المسرة في قلب الرئيس، ولم يبعث الأمل في قلــوب ملايين العراقيين التي كانت متعطشــــــة لكلمة .. الإنســــحاب.

كان رئيس الدولة العراقية يتحدث عن فتح أبواب فلسطين في حين تيقّن مستمعوه تلك الساعة أن أبواب بغـــــــــداد هي التي توصد عليهم ليختنقوا خلف مزالجــــها ...